أولاً: مفهوم التفسير والفرق بينه وبين التأويل:

مفهوم التفسير:

التفسير في اللغة: التفسير مأخوذ من الجذر الثلاثي (ف س ر) وتأتي هذه المادة للدلالة على معنى الكشف والإبانة، ومنه (فسَرت ذراعي) أي: كشفتها، وهذا هو الكشف الحسي، ومنه قولهم (فسَّرتُ الكلام) أي: بينت معناه، وهذا هو الكشف المعنوي.

التفسير في الاصطلاح: عُرِّف التفسير بتعريفات متعددة، وفيما يأتي بعض هذه التعريفات:

١. عرفه الطوسي بقوله: ((علم معاني القرآن وفنون أغراضه من القراءة والمعاني والإعراب والكلام على المتشابه والجواب عن مطاعن الملحدين فيه وأنواع المبطلين)).
٢. عرفه الزركشي بقوله: ((هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ثم ترتيب مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها)).
٣. عرفه أبو حيان الأندلسي بقوله: ((التفسير علم يُبْحَث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تُحْمَل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك)).
٤. عرفه الزرقاني بقوله: ((علم يُبْحَث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالتهُ على مراد الله بقدر الطاقة البشرية)).

نظرة نقدية في هذه التعريفات: بنظرة فاحصة لهذه التعريفات نجد أن التعريفات الثلاثة الأولى أدخلت في علم التفسير كلَّ ما يتعلق بالقرآن الكريم من علوم، فأدخلوا فيه علوم اللغة من نحو وصرف واشتقاق وبلاغة وقراءات وتجويد وغيرها. وأرى أن هذه التعريفات فيها إدخال علوم ومعارف في التفسير وليست هي منه، ذلك أن وظيفة المفسر هي بيان معاني القرآن؛ فليس عليه أن يبين كيف يُقرأ، ولا عليه أن يبين إعراب كلماته إلا بالقدر الذي يتوقف عليه بيان المعنى، وهكذا. كما إن فيها مأخذاً آخر هو طول هذه التعريفات، ومعلوم أنه لابد من أن يراعى الاختصار في التعريف. ومن آثار هذه التعريفات أننا نجد كتب التفسير مُلئت بمعلومات لا علاقة لها بعلم التفسير، فالفقيه مثلاً ملأ تفسيره بالمباحث الفقهية، واللغوي ملأ تفسيره بالمباحث اللغوية، وهكذا كل صاحب فن ملأ تفسيره بمباحث الفن الذي برع فيه.

أما التعريف الرابع فنرى أنه أقرب التعريفات إلى واقع علم التفسير ووظيفته، ويتفق مع معنى التفسير في اللغة الذي هو الكشف والبيان.

ولذلك سنشرح التعريف الأخير، فنقول:

عرف الزرقاني التفسير بقوله: **((علم يُبْحَث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالتهُ على مراد الله بقدر الطاقة البشرية))**، فقوله **((علم يُبْحَث فيه عن القرآن الكريم))** هذه العبارة دلت على ميدان هذا العلم، وهو القرآن الكريم، لذلك فمصطلح التفسير خاصٌّ بالقرآن الكريم، فلا يشمل الكلام على الكتب الإلهية التي نزلت قبل القرآن كالتوراة والإنجيل، ولا يشمل الكلام على السُّنة النبوية، وإنما هو خاصٌّ بالقرآن الكريم.

وهذه العبارة تشمل كلَّ العلوم التي تبحث في القرآن الكريم من قراءات وإعراب وتفسير وغيرها، إلا أن كل علم من هذه العلوم يَبْحَث في القرآن الكريم من جهة معينة، فمثلاً علم التجويد يبحث في القرآن الكريم من جهة

Scanned by CamScanner

كيفية النطق بألفاظه، وعلم القراءات يبحث فيه من جهة اختلاف القراء في قراءته، وعلم إعراب القرآن يبحث من جهة إعرابه... وهكذا.

أما علم التفسير فيبحث في القرآن من ((جهة دلالته على مراد الله)) فهذه هي وظيفة علم التفسير: بيان ما أراده الله تعالى بالقرآن الكريم والكشف عن معانيه، ولكن هنا لابد من بيان أن الكلام في تفسير الكثير من الآيات خاضع للاجتهاد القابل للخطأ والصواب، وكذلك فإن معاني القرآن الكريم لا يمكن أن يحيط بها إنسان، لذلك قال الزرقاني في التفسير ((بقدر الطاقة البشرية)) وهذه العبارة تدل على أن المفسر إذا كان أهلاً للتفسير وبذل وسعه في بيان معنى الآية فأخطأ في تفسيرها فإنه معذور؛ لأنه بذل ما بوسعه. كما دلت هذه العبارة على أنه لا يجب على المفسر أن يبين جميع الآية التي يفسرها، فإذا فاتته بعض معاني الآية التي يتكلم عليها فلا حرج عليه طالما أنه بذل ما بوسعه في تفسيرها.

مفهوم التأويل:

التأويل في اللغة: التأويل مأخوذ من الجذر الثلاثي (أ و ل)، وهذه المادة تدل على ابتداء الأمر وانتهائه، ومنه قولهم (الأوّل) وهو مبتدأ الشيء، ومن مجيء هذه المادة للدلالة على انتهاء الشيء قولهم (آل الرجل) أي: رجع، و(آلُ الرجلِ) هم أهل بيته لأنه يؤول . أي: يرجع . إليهم.

التأويل في الاصطلاح: عُرِّف التأويل بتعريفات متعددة وذلك بناء على اختلاف العلماء في التفريق بينه وبين التفسير، وفيما يأتي بيان مذاهب العلماء في التفريق بين التفسير والتأويل:

المذهب الأول: إن التفسير والتأويل مصطلحان مترادفان، معناهما بيان معاني القرآن الكريم بحسب الطاقة البشرية، وهذا قول أبي عبيدة معمر بن المثنى العالم اللغوي.

المذهب الثاني: إن التفسير بيان معاني القرآن على وجه الجزم لوجود دليل لدى المفسر، أما التأويل فهو بيان معاني القرآن بغلبة الظن والترجيح بين المحتملات لعدم وجود دليل قطعي لدى المتأوّل. وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

المذهب الثالث: إن التفسير بيان معاني القرآن الظاهرة، والتأويل بيان معاني القرآن الباطنة. مثال ذلك قوله تعالى ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ فتفسير هذه الآية أن الله مطلع على كل ما يعمل الظالمون ويسجلها عليهم ليحاسبهم عليها. أما تأويلها فهو التحذير من التهاون بأمر الله ومن الغفلة عن الاستعداد للعرض والحساب يوم القيامة. وهذا قول أبي طالب الثعلبي.

المذهب الرابع: التفسير حمل ألفاظ القرآن على ظاهرها ومعانيها الحقيقية، والتأويل هو حمل ألفاظ القرآن على معانيها المجازية. وهذا قول البغوي.

المذهب الخامس: التفسير بيان معاني القرآن عن طريق الرواية والمأثور، أما التأويل فهو بيان القرآن بالرأي والنظر وإعمال العقل.

القول الراجح في التفريق بين التفسير والتأويل: القول الذي نميل إليه في التفريق بين التفسير والتأويل هو أن التفسير بيان معاني القرآن وإيضاح معانيه كما سبق، أما التأويل فهو ((علم يتمّ به حُسنُ فَهمِ القرآن وإزالةُ اللَّبسِ والإشكالِ عن بعضِ آياته بردِّها إلى الغاية المرادة منها وحَملِها على الآيات الأخرى الواضحة التي لا لَبسَ فيها ولا إشكال واستنباط لطائف الآيات ودلالاتها وحقائقها)).

Scanned by CamScanner

وهذا يعني أن التفسير والتأويل هما مرحلتان متتابعتان، فالمرحلة الأولى هي التفسير يَفهَم فيها المفسر معاني الآيات الكريمة ويبين المراد منها، أما المرحلة الثانية فهي التأويل يحاول المفسر فيها استنباط المعاني التي تتضمنها الآية عن طريق الإشارة، ولتوضيح هذا المعنى نضرب المثال الآتي:

سورة النصر ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره... ﴾ فتفسيرها هو أن الله تعالى أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يكثر من تسبيح الله وحمده عندما يرى فتح الله تعالى لمكة ودخول الناس في الإسلام أفواجاً... إلخ. أما تأويل هذه السورة فهو بيان قرب أجل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا المعنى استنبطه الصحابي الجليل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما من هذه السورة؛ إذ فَهِمَ أن هذه السورة تشير إلى ارتباط حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض بهذا الدين، وأن مهمته هي تبليغه وجهاد أعدائه، وبعد أن تحقَّقَ نصر الدين وانتشر في بقاع جزيرة العرب انتهت مهمته التبليغية وبهذا ينتهي عمره في هذه الدنيا.

معنى التأويل في القرآن الكريم: ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم في عدة آيات، وقد ذكر العلماء أنه جاء في القرآن ليدل على ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: بيان مراد المتكلِّم، وهو بهذا يرادف معنى التفسير، كما في قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي: تفسير الأحلام والرؤى.

المعنى الثاني: الموجود الذي يؤول (أي: يرجع) إليه الكلام، أي: ظهور المتكلَّم به في الواقع المحسوس، فإذا كان الكلام خبراً فتأويله وقوع المخبَر به، وإذا كان الكلام أمراً أو نهياً فتأويله هو العمل بموجبه، ومنه قوله تعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمَّا يأتهم تأويله﴾ أي: لم تقع الحقائق التي كذبوا بها من وقوع العذاب بالمكذبين بَعْدُ.

المعنى الثالث: العاقبة: كما في قوله سبحانه: ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ أي: عاقبةً.

ثانياً: أهمية علم التفسير:

يُعَدُّ التفسير علماً عظيماً من العلوم الشرعية، وقد أولى سلفُنا الصالحُ التفسيرَ أهمية كبيراً واعتنوا به عنايةً بالغة، فعني سعيد بن جبير التابعي الجليل أنه قال: ((مَنْ قرأ القرآن ولم يفسره كان كالأعمى))، وقال الراغب الأصفهاني عن التفسير: ((أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان))، ويمكن بيان أهمية التفسير فيما يأتي:

1. إن موضوع علم التفسير هو القرآن الكريم، الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة ولا تنقضي عجائبه. ومعلوم أن شرف العلم من شرف المعلوم والموضوع، ولا يوجد أعظم ولا أقدس من القرآن.
2. إن غرض علم التفسير هو فهم بالقرآن الكريم من أجل التمسك بهداه والعمل بأحكامه للوصول إلى القرب من رب العالمين ونيل سعادة الدارين؛ إذ لا يمكن العمل بالقرآن بدون فهمه وتفسيره.
3. إن الحاجة اليوم ضرورية لعلم التفسير، وذلك أن القرآن حينما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم كان إدراك القرآن لا يحتاج إلى كبير عناء؛ لكونه نزل بلغة الناس آنذاك وبوجود النبي صلى الله عليه وسلم بينهم يتوجهون إليه لسؤاله إذا ما أشكل عليهم شيء من القرآن. أما اليوم وبعد أن اختلط العرب بالأعاجم وابتعد الناس عن لغة القرآن، مما جعلهم لا يفهمون الكثير من مفرداته وتراكيبه، فاشتدت حاجتهم إلى العلم الذي يكشف لهم عن معاني هذا الكتاب العظيم، وهو علم التفسير.

٤. إن علم التفسير هو الوسيلة لتحقيق الغاية التي نزل من أجلها القرآن الكريم، وهي تدبر هذا القرآن، كما قال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك ليدَّبَّروا آياته﴾ والتدبر هو الغوص في آيات القرآن الكريم لاستخراج كنوزه وهداياته، ومعلوم أنه لا يمكن لأحد أن يتدبر القرآن إلا بعد فهمه لمعاني مفرداته وتراكيبه.

٥. وإن علم التفسير هو علم يمنع المغرضين والجهلة من تحريف معاني القرآن، فالقرآن قد حرس الله ألفاظه وتكفل بحفظها، فلا يقع فيها زيادة أو نقص أو تغيير، ولكن قد يلجأ أعداء الله وأعداء دينه إلى تحريف معاني القرآن الكريم وذلك بتحميل ألفاظه وتراكيبه ما لا تحتمله من المعاني لتشويش عقائد الجهلة وصدهم عن الهدى والحق. لذا فقد وضح علماؤنا أن تفسير القرآن لا يجوز لأي أحد أن يخوض غماره ما لم يكن مؤهلاً له محققاً لشروط المفسر. — شروط المفسر سوف تأتي إن شاء الله

أقسام التفسير

قسم العلماء التفسير تقسيمات عدة باعتبارات متعددة، والاعتبارات التي بنيت عليها أقسام التفسير أربعة:

١. باعتبار معرفة الناس له.

٢. باعتبار أساليبه.

٣. باعتبار اتجاهات المفسرين فيه.

٤. باعتبار طرق الوصول إليه.

وفيما يأتي بيان ذلك بشيء من التفصيل:

أولاً: أقسام التفسير باعتبار معرفة الناس له

أقسام التفسير باعتبار معرفة الناس له أربعة، بيَّنها ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «القرآن على أربعة وجوه: وجه تعرفه العرب من كلامها، ووجه لا يُعذر أحدٌ بجهله، ووجه يعلمه العلماء، ووجه لا يعلمه إلا الله ومن ادَّعى علمه فقد كذب»، وفيما يأتي توضيح لهذه الأقسام:

القسم الأول: ما تعرفه العرب من كلامها: ويشمل ألفاظ القرآن وأساليبه، وهذه معلومة للعرب على وجه العموم، وإن كان قد يخفى على أفراد منهم شيء منها لغرابتها على مسمعه أو عدم اعتياده عليها في لغة قومه كما خفي على ابن عباس بعض معاني مفردات القرآن كلفظ (فاطر) .ولذلك تجد في تفاسير السلف تفسيرهم اللغوي لمعنى: الصمد والكفؤ والعلق والفلق وغيرها فهذا في الألفاظ، أما في الأساليب فهم يعلمون من قوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أن هذا خطاب امتهان وتهكم، وإن كانت ألفاظه تستخدم للمدح والخير، ولكن سياق الكلام دلَّ على هذا المعنى. وهذا الوجه من فروض الكفاية؛ إذ لا يجب على كل مسلم معرفة جميع المعاني والأساليب.

القسم الثاني: ما لا يُعذر أحدٌ بجهله: ويشمل أصول العقائد والأخلاق والأمر بالفرائض والنهي عن المحارم، كقوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ فيجب على كل مسلم معرفة معنى (لا إله إلا الله)، وكالأمر بالصدق والأمانة، والنهي عن الكذب والخيانة والفواحش كالزنا وشرب الخمر، والأمر بأصول العبادات كالصلاة والزكاة والصيام والحج. فهذا كله من القدر الواجب معرفته من القرآن الكريم.

Scanned by CamScanner

القسم الثالث: ما يعلمه العلماء: ويشمل ما يُشكل على عامّة الناس، وما يُستنبط من الفوائد والأحكام. وفي الحديث: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس»، فدلّ ذلك على أنّ هناك قليلاً من الناس يعلمون حكمها وهم العلماء، وهذا القسم من فروض الكفاية.

القسم الرابع: ما لا يعلمه إلا الله: مثل حقائق أمور الغيب وكيفيّاتها ووقت وقوعها، فمن ادّعى علمها فقد كذب، وذلك كوقت الساعة وكيفية خروج الدابة ونحو ذلك، فيحرم الخوض في تفسير حقائق هذه الأمور والتخرص بذكر وقت وقوعها، ففيه افتراء على الله تعالى.

ثانياً: أقسام التفسير باعتبار أساليبه:

وهي أربعة:

القسم الأول: أسلوب التفسير التحليلي: وهو الغالب على كتب التفسير جميعها، ويعتمد على تحليل الآية ببيان سبب نزولها، والألفاظ الغريبة فيها، وإيضاح مشكلها، وبيان مجملها، وذكر ما فيها من الأقوال، ثم ينتقل إلى الآية التي تليها حتى تنتهي السورة، فينتقل للتي تليها حسب ترتيب المصحف، حتى ينتهي من تفسير القرآن كاملاً بهذه الطريقة، وهذه هي طريقة السلف، فقد كان الصحابة لا يجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل كما روى أبو عبدالرحمن السلمي عنهم، وكما أخبر مجاهد عن نفسه أنه عرض المصحف على ابن عباس ثلاث مرات يوقفه عند كل آية ويسأله عنها. ومن أمثلته: تفسير البغوي، وابن عطية، والفخر الرازي، وغيرهم.

القسم الثاني: أسلوب التفسير الإجمالي: وفيه يعمد المفسر إلى بيان المعنى العام الإجمالي للآية دون التعرض للتفاصيل كالإعراب واللغة والأقوال المختلفة والترجيح بينها. ومن أمثلته: تفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»، وتفسير أبي بكر الجزائري «أيسر التفاسير»، وتفسير الناصري «التيسير في أحاديث التفسير».

القسم الثالث: أسلوب التفسير المقارن: حيث يعمد المفسر إلى قولين في التفسير أو أكثر ويقارن بينهما مع ترجيح ما يراه راجحاً. ومن أمثلته: تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن».

القسم الرابع: أسلوب التفسير الموضوعي: حيث يعمد المفسر إلى جمع الآيات التي تتحدث في موضوع واحد أو كلمة، فيفسرها بغض النظر عن ترتيبها في المصحف، فالموضوع هو الوحدة التي يفسَّر على أساسها سواء في كل القرآن أو حتى في سورة واحدة منه. ولقد كثر استخدام هذا الأسلوب عند المعاصرين ولاسيما في الرسائل العلمية (الماجستير والدكتوراه)، ومن الأمثلة على ذلك: (المال في القرآن)، و(النفاق مفهومه وآثاره في ضوء القرآن)، (النعم في سورة النحل).

ثالثاً: أقسام التفسير باعتبار اتجاهات المفسرين فيه:

وذلك بالنظر إلى ثلاثة أمور:

الأول: المذهب العقدي للمفسر: فهناك اتجاهات للمفسرين مثل:

١. الاتجاه السُّني: مثل تفسير الطبري وأبي المظفر السمعاني والفخر الرازي والبيضاوي.

٢. والاتجاه المعتزلي: مثل تفسير القاضي عبدالجبار والجبّائي.

Scanned by CamScanner

٤ . والاتجاه الشيعي مثل تفسير الطوسي والنوري الطبرسي والقمي.

٥ . والاتجاه الصوفي مثل تفسير ابن عربي وابن عجيبة وأبي عبدالرحمن السلمي والقشيري والتستري.

الأمر الثاني: المذهب الفقهي للمفسر: فهناك اتجاهات ومذاهب فقهية التزم بها بعض المفسرين مثل:

١ . المذهب الحنفي: ويمثله الجصاص في تفسيره: أحكام القرآن.

٢ . المذهب المالكي: ويمثله ابن العربي في تفسيره: أحكام القرآن.

٣ . المذهب الشافعي: ويمثله: إلكيا الهراسي في تفسيره: أحكام القرآن.

٤ . المذهب الحنبلي: ويمثله: القاضي أبو يعلى في تفسيره: أحكام القرآن.

الأمر الثالث: الاتجاه اللغوي والنحوي والبلاغي في التفسير:

١ . الاتجاه اللغوي: ومن أمثلته: معاني القرآن للفرّاء، ومجاز القرآن لأبي عبيدة.

٢ . الاتجاه النحوي: ومن أمثلته: البحر المحيط لأبي حيان، والدر المصون للسمين الحلبي.

٣ . الاتجاه البلاغي: ومن أمثلته: الكشاف للزمخشري، وجامع التفاسير للراغب الأصفهاني.

رابعاً: أقسام التفسير باعتبار طرق الوصول إليه:

يقسم التفسير بهذا الاعتبار على قسمين:

أولهما: التفسير بالمأثور: وطريق الوصول إليه الأثر المروي. **والثاني: التفسير بالرأي:** وطريق الوصول إليه الاجتهاد. وفيما يأتي تفصيل الكلام في هذين القسمين:

القسم الأول: التفسير بالمأثور: وهو ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقل عن الرسول □ أو الصحابة من ذلك. واختلف في تفسير التابعين أيدخل في التفسير بالمأثور أم لا؟

ولهذا القسم من أقسام التفسير فضله ومكانته؛ فهو أعلى طرق التفسير وأصحُّها، فإما أن يكون من كلام الله أو رسوله أو الصحابة الذين شاهدوا التنزيل وهم أهل اللغة وتميزوا عن غيرهم بمشاهدة القرائن والأحوال حين النزول. ولابد من التنبيه على أن التفسير المأثور منه ما توافرت الأدلة على صحته وقبوله فهذا يجب الأخذ به، ولا يجوز العدول عنه، ومنه ما لم يصح ويثبت فهذا يجب رده، ولا يجوز قبوله ولا الاهتمام به إلا للتنبيه على ضعفه.

القسم الثاني: التفسير بالرأي: أي: بالاجتهاد والاستنباط العقلي، وينقسم على قسمين:

الأول: التفسير بالرأي المحمود: وهو المستمد من القرآن والسنة مع عِلْم صاحبه بلغة العرب وبقواعد الشريعة وأصولها وتجرده لله، ويكون مبنياً على يقين أو غلبة ظن.

وقد فسّر الصحابة رضي الله عنهم القرآن بالرأي المحمود كما فسر أبوبكر رضي الله عنه آية الكلالة، وربما اختلفوا في معنى الآية الواحدة، فاجتهد كل منهم برأيه.

Scanned by CamScanner

وحكم هذا القسم أنه جائز حين لا يوجد في الآية نصٌ صحيحٌ من المأثور، بل ومندوب إليه أحياناً. قال العلماء: «فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه».

ومن الأدلة على ذلك:

١. من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِر﴾ أي: متفكِّر، وقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآنَ أم على قلوبٍ أقفالُها﴾، وقوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليكم مباركٌ لِيَدَّبَّروا آياته﴾

٢. ومن السنّة: دعاءُ النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: «اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل»؛ فالتأويل هو التبحر في فهم كتاب الله واستنباط فوائده ولطائفه وإزالة اللبس في فهم بعض آياته، كما سبق بيانه.

٣. من فعل الصحابة رضي الله عنهم: فقد اختلفوا في تفسير القرآن على وجوه فدلَّ على أنه من اجتهادهم.

الثاني: التفسير بالرأي المذموم: وهو التفسير عن جهل أو هوى، ولا يستند إلى نصوص الشريعة وأصول اللغة العربية.

وأكثر من فسر القرآن بالرأي المذموم هم أهل البدع والمذاهب الباطلة؛ فقد أرادوا الاستدلالَ على مذاهبهم وبدعهم، فلم تطاوعهم النصوص على ما ذهبوا إليه ففسروها بآرائهم وحمَّلوها ما لا تحتمله من المعاني الفاسدة.

قال بعض العلماء: ((إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف لا في رأيهم ولا تفسيرهم)).

وحكم هذا القسم أنه محرم يأثم صاحبه، ولا يجوز له أن يفسِّر القرآن به، يقول النووي: «أما من كان من غير أهله . لكونه غير جامع لأدواته . فحرام عليه التفسير، والإجماع منعقد عليه».

من الأدلة على تحريمه:

١. من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم﴾، وقوله تعالى: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾.

٢. من أقوال الصحابة رضي الله عنهم: قول أبي بكر رضي الله عنه: «أيُّ أرض تُقِلُّني وأيُّ سماء تُظِلُّني إذا قلتُ في كتاب الله ما لم أعلم»

٣. من أقوال التابعين: يقول عامر الشعبي: ((والله ما من آية إلا وقد سألتُ عنها ولكنها الرواية عن الله)) يعني أنه يعلم تفسير القرآن الكريم على التفصيل لكنه يخشى أن يتكلم فيه لأن تفسير القرآن هو في حكم الرواية عن الله تعالى وهو أمر عظيم لا يجرؤ أن يقدم عليه. وقال إبراهيم النخعي: ((كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه)).

قال العلماء: «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به.. ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوالٌ في التفسير، ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد)).

آداب التفسير

Scanned by CamScanner

يتضح مما سبق أن الكلام في تفسير القرآن الكريم أمر عظيم وعمل كبير، ولذلك لا يجوز لكل أحد الدخول فيه ما لم يكن أهلاً له، وحتى يكون الإنسان أهلاً لذلك يجب عليه أن يلتزم بجملة آداب، وتتنوع هذه الآداب إلى ثلاثة أنواع، هي: الآداب الموضوعية، والآداب النفسية، والآداب الفنية. وفيما يأتي تفصيل الكلام في هذه الأنواع:

أولاً: الآدب الموضوعية:

الموضوعية: هي معيار أساسي من معايير البحث، يقوم على الصّدق والعلم والأمانة والبُعد عن الأهواء الشخصية، هذا هو معنى هذا المصطلح، وقد استعمل القرآن بدلاً عنه مصطلح (القيام بالقسط) و(العدل)، كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾.

وعلى هذا فالموضوعية مطلب مهم جداً من مطالب البحث العلمي، وبدونه يكون الإنسان أسير أهوائه وعبد شهواته فلا يستطيع التوصل إلى الحقيقة ولا أن يتخذ قراراً صائباً.

من هنا تأتي أهمية الموضوعية للمفسر، حتى يكون تفسيره للقرآن موافقاً للصواب، وإذا ما افتقد الموضوعية فإنه قد يحرف معاني القرآن للتوافق مع أهوائه، ويجعل التفسير وسيلة لنصرة مذهبه وحزبه. فالموضوعية شرط لتلقي معاني القرآن كما أرادها الله تعالى. وفيما يأتي بعض الآداب الموضوعية التي لا يستغني عنا المفسر:

١. من الآداب المتعلقة بهذه القضية (أعني الموضوعية) التي يجب أن يتحلى بها المفسر أن يضع نصب عينيه أنه أمام أقدس كتاب، فهو كتاب الله أنزله رحمة للعالمين ليهديهم إلى سعادة الدارين ويكون منهج حياة، لذلك فهو أمام أمانة لا يحملها إلا المخلصون ممن شرحوا صدورهم للقرآن. إن هذا الشعور لدى المفسر يدفعه أن يبذل وسعه في تفسير القرآن واستخراج كنوزه لعلاج واقعه وإيصال هدايات القرآن إلى الناس.

٢. ومن الآداب الموضوعية أن يبتعد المفسر عن الخلافات والتوسع في الخصومات، فهذا أمر بعيد عن وظيفة المفسر ولا يدخل في ميدان علم التفسير، وإنما محل ذلك كتب الفقه المقارن وكتب العقيدة التي تعنى بذكر عقائد الفرق وأدلتها. نعم قد يحتاج المفسر إلى ذكر اختلاف المذاهب عند تفسير بعض الآيات التي تتعلق مثلاً ببعض الأحكام الشرعية وتحتمل أكثر من معنى، ولا يوجد دليل قطعي يعين المعنى المراد، فلا بأس بعض آراء المذاهب في الآية، لكن يجب عليه أن لا يتوسع في ذلك وأن يذكر المذاهب بعيداً عن التعصب المذموم.

٣. ومن الآداب الموضوعية التي يجب أن يلتزم بها المفسر الابتعاد عن لغة التهجم والاتهام، فهي لا تجدي نفعاً ولا تغير معتقداً ولا تجعل أحداً ينثني عن رأي يتبناه.

وأخيراً نقول: إن الموضوعية باختصار هي: إدراك المسؤولية الكبرى التي يتحملها المفسر لكتاب الله، فلا ينحرف عنها، جاعلاً الله نصب عينيه، فلا يفسر القرآن بحسب ما يستحسنه بهواه، وإنما يحاول الكشف عن مراد الله تعالى بحسب ما أتاه الله من قدرة.

ثانياً: الآدب النفسية:

الآداب النفسية هي مجموعة الصفات والملكات، التي ينمو بها الكمال الذاتي في تهذيب النفس وصيانتها عن الزيغ، إنها تعني باختصار إصلاح السريرة ولزوم الطاعة ونقاء الضمير، وهذا يهيئ النفس لتدبر القرآن

Scanned by CamScanner

وفهمه والانتفاع بهداياته، ولذلك قال تعالى عن القرآن: ﴿هدى للمتقين﴾ فخصص هدايته بالمتقين مع أنه هداية لجميع الناس؛ لأن المتقين المخلصين الطالبين للحق هم من يستطيعون تدبر القرآن وفهمه والانتفاع بهداياته.

من هنا يجب على المفسر أن يلتزم بجملة من الآداب النفسية، منها:

١. **صحة الاعتقاد:** وقد عد العلماء صحة الاعتقاد من شروط المفسر؛ لأن من كان فاسد الاعتقاد لا يؤتمن على تفسيره للقرآن؛ لأنه قد يتخذ تفسير القرآن وسيلة لنصرة اعتقاده الفاسد، ولهذا وجدنا الكثير من المستشرقين تكلموا في تفسير بعض الآيات بهدف التشكيك في القرآن وتحريف معانيه، لذا لا يجوز أخذ التفسير عن أمثال هؤلاء، فغاية التفسير هو الاهتداء بهدى القرآن، وهؤلاء غير مهتدين فكيف يوصلون الهداية إلى غيرهم؟! ومعلوم أن فاقد الشيء لا يعطيه.

٢. **الإخلاص والتفويض:** إخلاص النية أمر لابد له للمفسر، ونعني بإخلاص النية أن تكون نية المفسر فهم القرآن فهماً صحيحاً للوصول إلى الغاية التي نزل من أجلها القرآن وهي التقرب إلى الله تعالى بالتمسك بهذا القرآن العظيم. إن الإخلاص يدفع المفسر إلى بذل ما في وسعه لبيان معاني القرآن الكريم التي أرادها الله، ويجعله متجرداً لبيان الحق ولا يكون قصده من التفسير الانتصار لمذهبه أو حزبه ولا يبتغي الأجر من المخلوقين، بل لا قصد لديه سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى الذي أمر بتدبر القرآن والاهتداء بهديه. أما التفويض فهو التوكل على الله وطلب العون منه على تفسير القرآن؛ لأن التفسير أمر عظيم لا يوفق فيه العبد ما لم يوفقه الله سبحانه ويفتح عليه علوم القرآن، قال تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ أي: من يتوكل على الله ويعتمد عليه في جميع أموره فإنه يكفيه ويوفقه لكل خير.

٣. **التدبر والتفكر:** التدبر في ايات القرآن والتفكر في معانيه من أبرز سمات المفسر الذي يريد الوصول إلى ما أراد الله من المعاني في القرآن الكريم، وذكر الزركشي أن التدبر والتفكر أصل للوقوف على معاني القرآن. ويجب على المفسر أن لا يتعجل في تفسير القرآن، بل لابد أن يقف على الآيات القرآنية ويتدبر فيها ويتأمل في أهدافها ومقاصدها، فهذا هو سبيل فهم القرآن فهماً صائباً؛ إنه التأني وعدمُ العجلةِ والتفكر والتأمل والتدبر في آيات القرآن الكريم. وبهذا السبيل يتم تذوق شيء من جمال القرآن ولطائف معانيه.

٤. **علم الموهبة:** لابد للمفسر أن تكون له موهبة في تفسير القرآن وفهم معانيه، وتأتي هذه الموهبة من التزام الطاعات وترك المعاصي الظاهرة والباطنة[١]، فإن المعاصي حجاب يحجب العبد من فهم القرآن، ولذلك قال تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾. ومما يتعلق بعلم الموهبة أن يكون المفسر متفتح الذهن قوي العقل، لديه القدرة على الفهم والاستنتاج.

ثالثاً: الآداب الفنية:

الآداب الفنية هي مجموعة العلوم والفنون التي يجب على المفسر تحصيلها ليكون مؤهلاً لعلم التفسير، هذه العلوم تعصم المفسر من الوقوع من الخطأ وتحميه من القول على الله بدون علم، وهذه العلوم هي:

١. **علم اللغة:** وهذا العلم لا يمكن للمفسر أن يفسر القرآن بدونه؛ لأنه بواسطته يتمكن المفسر من شرح مفردات الألفاظ ويبين دلالاتها.

---

١ المقصود التزام الطاعات الواجبة وترك المحرمات، والطاعات الواجبة منها ما هو باطن يتعلق بالقلب كحب الله تعالى والتعلق به والتوكل عليه والتواضع، ومنها ما هو ظاهر يتعلق باللسان والجوارح كالصلوات الخمس والصوم والحج وبر الوالدين وغيرها. والمحرمات كذلك منها ما هو باطن كالتكبر والعجب والغفلة عن الله، ومنها ما هو ظاهر يتعلق باللسان والجوارح كالكذب والنظر إلى المحرمات والزنى وغيرها.

Scanned by CamScanner

٢. علم النحو: وهو علم مهم للمفسر، ولاسيما وأن للإعراب أثراً كبيراً في المعنى، ويظهر ذلك في الآيات التي قرئت بأكثر من قراءة، وكل قراءة تختلف عن غيرها بالإعراب، كما في قوله تعالى: ﴿ذو العرش المجيد﴾ قرئت بكسر الدال من كلمة ((المجيد)) وبضمها، فعلى قراءة الكسر يكون (المجيد) صفة للعرش، وعلى قراءة الضم يكون (المجيد) صفة لصاحب العرش وهو الله تعالى.

٣. علم الصرف: وهو علم يختص بأبنية الألفاظ اللغوية وأوزانها واشتقاقاتها، وبواسطته يتمكن المفسر من فهم الكثير من الآيات فهماً صحيحاً، ومن لم يتقنه قد يقع بالخطأ، كما حصل لبعض من فسر القرآن فذكر في قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ أن معناه أن الله يدعو كل إنسان باسم أمه؛ لأن (إمام) جمع أمّ، وهذا فهم غير صحيح، وكلمة ((أم)) جمعها ((أمهات)) وليس ((إمام)).

٤. علوم البلاغة: ونعني بعلوم البلاغة علم البيان وعلم المعاني وعلم البديع، وبواسطة هذه العلوم يستطيع المفسر معرفة خواص التراكيب ومعاني الأساليب اللغوية المختلفة، ووجوه تحسين الكلام.

٥. علم أصول الدين: وبهذا العلم يكون المفسر صحيح العقيدة، قادراً على معرفة معاني الكثير من الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلالاتها.

٦. علم أصول الفقه: وهذا العلم من العلوم الضرورية للمفسر، ولا يمكن لمفسر أن يستغني عنه؛ فبه يستطيع معرفة دلالة الألفاظ والتراكيب واستنباط الأحكام الفقهية من الآيات القرآنية.

٧. علم أسباب النزول: وهذا علم يتوقف عليه فهم الكثير من الآيات التي نزلت لأسباب معينة، ويصعب فهمها بدون معرفة سبب نزولها.

مصادر التفسير

المقصود بمصادر التفسير: المراجع الأولية التي يرجع إليها المفسر عند تفسيره لكتاب الله ، وهذه المصادر هي: القرآن، والسنة، وأقوال الصحابة، وأقوال التابعين وتابعيهم ، واللغة، والرأي والاجتهاد. وإنما قيل: ((المراجع الأولية))؛ لئلا تدخل كتب التفسير؛ لأنها تعد مصادر أيضاً، ولكن الحديث هنا ليس عنها، وإنما المقصود من أين أخذ المفسرون التفسير.

وقد اصطلح شيخ الإسلام ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) على تسميتها بـ(طرق التفسير) ، ذكر منها أربعة ، وهي: القرآن ، والسنة ، وأقوال الصحابة ، وأقوال التابعين في التفسير. وجعلها بدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـ) مآخذ التفسير ، وذكر أمهاتها ، وهي أربع: النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم الأخذ بقول الصحابة ، ثم الأخذ بمطلق اللغة، ثم التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع. وفيما يأتي تفصيل القول في هذه المصادر، وبالله التوفيق:

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن:

يعد القرآن أول مصدر لبيان تفسيره؛ لأن المتكلم به هو أولى من يوضّح مراده بكلامه؛ فإذا تبيّن مراده به منه؛ فإنه لا يُعدل عنه إلى غيره. ولذا عدّه بعض العلماء أول طريق من طرق تفسير القرآن، وقال آخر: إنه من أبلغ التفاسير؛ وإنما يُرجع إلى القرآن لبيان القرآن؛ لأنه قد يَرِدُ إجمالٌ في آية تبيّنه آية أخرى، وإبهام في آية توضّحه آية أخرى، وهكذا.

المفسرون المعتنون بهذا المصدر:

إن مراجعة روايات التفسير المروية عن السلف تدل على أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ت: ١٨٢هـ) كان من أكثر السلف اعتناءً بتفسير القرآن بالقرآن. أما كتب التفسير فإن من أبرز من اعتنى به ثلاثة من المفسرين هم:

Scanned by CamScanner

(١) الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) في كتابه (تفسير القرآن العظيم).

(٢) الأمير الصنعاني (ت: ١١٨٢هـ) في كتابه: (مفاتح الرضوان في تفسير الذكر بالآثار والقرآن).

(٣) الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ) في كتابه: (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن).

طرق تفسير القرآن بالقرآن:

لتفسير القرآن بالقرآن طرق، أهمها:

١. **تخصيص العام:** قد يرد لفظ أو تركيب عام في آية، فيخصص هذا اللفظ أو التركيب في آية أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٤] عموم يشمل كل أب: مسلم وكافر، وهو مخصوص بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾ [التوبة: ١١٣] فخرج بهذا الاستغفار للأبوين الكافرين، وظهر أن المراد بهما الأبوان المؤمنان.

٢. **بيان المجمل:** أجمل الله القدر الذي ينبغي إنفاقهُ في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وبين في مواضع أخر: أن القدر الذي ينبغي إنفاقه هو الزائد عن الحاجة وسدّ حاجة التي لابد منها، وذلك كقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩] والمراد بالعفو: الزائد على قدر الحاجة التي لابدّ منها. وفي قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] إجمال في المتلو، وقد بيّنه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

٣. **تقييد المطلق:** أطلق الله استغفار الملائكة لمن في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، وقد قيّد هذا الإطلاق بالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر: ٧].

٤. **تفسير لفظة غريبة في آية بلفظة أشهر منها في آية أخرى،** ورد لفظ (سِجّيل) في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، والممطر عليهم هم قوم لوط عليه الصلاة والسلام، وقد وردت القصة في سورة الذاريات وتبين أن المراد بالسجيل: الطين في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٢، ٣٣].

٥. **تفسير معنى آية بآية أخرى،** التسوية في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾[النساء: ٤٢]، يراد بها: أن يكونوا كالتراب، والمعنى: يودّون لو جُعِلوا والأرض سواءً، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾ [النبأ: ٤٠].

ثانياً: تفسير القرآن بالسنة:

تعد السنة المصدر الثاني للتفسير، فلا أحد أعلم بالقرآن وتفسيره من النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يستغرب ذلك فقد ذكر الله تعالى أن وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم هي بيان القرآن، قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم﴾، ولبيان القرآن بالسنة طرق، منها:

١. **بيان معنى لفظة:** إن المتأمل في ما نقله الصحابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم يلاحظ أنهم لم يوردوا عنه تفسيراً للألفاظ، ويظهر والله أعلم أن ذلك بسبب معرفتهم للمعاني اللغوية؛ لأنهم عرب يفهمون معاني الخطاب، ولو ورد لهم استشكال في فهم ألفاظه أو مدلولاته اللغوية لسألوا عنها، ومما يدل على ذلك حديث ابن مسعود في نزول آية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾[الأنعام: ٨٢]

Scanned by CamScanner

٠٧٨٢١٢٢٧٥٩١

فهم فهموا الظلم بمعناه العام في لغتهم (أي أنهم استشكلوا معنى لفظة: الظلم) فشق عليهم ذلك حتى بينه لهم رسول الله.

٢٠١٩/١١/٢٨

إذن .. لم يكن الصحابة بحاجة إلى بيان المفردات اللغوية، ولذا لم يرد في التفسير النبوي إلا نادرا، منه ما جاء عن أبي سعيد الخدري من تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم للفظة (وسطاً) من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة: ١٤٣] قال: (الوسط العدل).

٢. **بيان حكم فقهي في الآية:** قد يرد الحكم في آية مطلقاً فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم مزيد بيان له، وذلك إما بتحديد مقدار الحكم الفقهي، أو تخصيص اللفظ العام أو غير ذلك. ومن تحديد المقدار: ما رواه البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[البقرة: ١٩٦] عن كعب بن عجرة قال: حُمِلْتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهي، فقال: ماكنتُ أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟ قلت: لا. قال: ((صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين؛ لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك)) فنزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامة.

فأنت ترى أن البيان القرآني لم يحدد المقدار في الفدية، فلما فسر الرسول صلى الله عليه وسلم فسرها بالمقدار، وهذا أحد أنواع بيان السنة للقرآن.

ومن تخصيص العام في الحكم الفقهي، ما رواه مسلم عن أنس قال: كانت اليهود إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] إلى آخر الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اصنعوا كل شيء إلا النكاح).

فلو أُخذ بظاهر العموم في قوله (فاعتزلوا) لفُهِم أن اعتزال المرأة عام: في مؤاكلتها ومشاربتها ومخالطتها ومجامعتها، فكان هذا البيان النبوي مخصِّصاً لذلك العموم القرآني.

٣. **بيان المشكل:** إنما يعرف المشكل بسؤال الصحابة عنه؛ لأن السؤال لا يقع إلا بعد استشكال في الغالب ومن أمثلة ما سأل عنه الصحابة: حياة الشهداء؛ قال مسروق: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فأخبرنا أن أرواحهم في جوف طير خضرٍ، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل...

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لما قدمتُ نجران سألوني: إنكم تقرؤون: ﴿يا أخت هارون﴾ [مريم: ٢٨] وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال: إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم.

٤. **ذكر مصداق كلامه من القرآن:** ورد في تفسير النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة يذكر فيها مصداق كلامه من القرآن، وتأتي عبارات: (ثم قرأ) (اقرؤوا إن شئتم) (مصداق ذلك من كتاب الله)، ومن ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة لقي الله وهو عليه غضبان)، وقال عبد الله بن مسعود: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداق ذلك من كتاب الله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَٰئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ...﴾ [آل عمران: ٧٧].

Scanned by CamScanner

٥. بيان المبهم: القاعدة الغالبة أن ما أبهمه القرآن فلا فائدة عملية تنال من ذكره، ومع ذلك فإنه ورد سؤال الصحابة عن ذلك، إلا أنه نادر، ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: مرّ بي عبدالرحمن بن أبي سعيد الخدري، قال: قلت له: كيف سمعت أباك يذكر المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: قال أبي: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله، أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال: هو مسجدكم هذا؛ لمسجد المدينة. قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره.

ثالثاً: تفسير القرآن بأقوال أهل البيت والصحابة رضوان الله عليهم:

يعد تفسير الصحابة الكرام [ومنهم أهل البيت] رضي الله عنهم جميعاً من المصادر المهمة في تفسير القرآن الكريم؛ وذلك لكون القرآن نازلاً بلغتهم ولصحبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم ومعرفتهم للظروف التي نزل فيها القرآن ولحسن نيتهم وصفاء سريرتهم، ولذلك اعتنى العلماء بتفسير الصحابة الكرام ومن التفاسير التي اعتنت بنقل تفاسير الصحابة وأهل البيت تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) وتفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم).

أسباب أهمية تفسير أهل البيت والصحابة:

ذكر العلماء أسباباً عدة لأهمية تفسير أهل البيت والصحابة، ومن هذه الأسباب:

١- أنهم شهدوا التنزيل، وعرفوا أحواله:

كان لمشاهدتهم التنزيل ومعرفة أحواله أكبر الأثر في علو تفسيرهم وصحته؛ إذ الشاهد يدرك من الفهم ما لا يدركه الغائب.

وفي حجيّةِ بيان الصحابة للقرآن، فيما لو اختلفوا، قال الشاطبي: (وأما الثاني [يعني من أسباب حجية تفسير الصحابة]: مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنّة، فهم أقْعَدُ في فَهْمِ القرائن الحالية، وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب. فمتى جاء عنهم تقييدُ بعض المطلَقات، أو تخصيص بعض العمومات، فالعمل عليه على الصواب، وهذا إن لم ينقل عن أحدهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسألة اجتهادية).

ومن آثار مشاهدتهم التنزيل معرفتهم الكبيرة لأسباب النزول، ومعرفة أسباب النزول لازمة لمن أراد علم القرآن؛ لأن الجهل بأسباب النزول مُوقِعٌ في الشُّبَه والإشكالات، ومُورِدٌ للنصوص الظاهرة مَورِدَ الإجمال حتى يقع الاختلاف.

وإنما يقع ذلك؛ لأن معرفة أسباب النزول بمنزلة مقتضيات الأحوال التي يُفْهَمُ بها الخطاب، وإذا فات نقل بعض القرائن الدّالة فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيءٍ منه.

ومعرفة أسباب النزول رافعة لكل مشكلٍ في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بدّ، ومعنى معرفة السبب هو معنى مقتضى الحال.

إن ممّا يدلّ على ما سبق من الكلام: ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أُتِيَ برجلٍ من المهاجرين الأولين وقد شرب الخمر فأمر به عمر أن يُجلد، فقال: لِمَ تجلدني؟! بيني وبينك كتاب الله، قال: وفي أيّ كتاب الله تجد أن لا أجلدك؟ قال: فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

Scanned by CamScanner

جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا..﴾ [المائدة: ٩٣]، فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا؛ شهدت مع رسول الله بدراً وأحداً والخندق والمشاهد. فقال عمر: ألا تَرُدّون عليه؟ فقال ابن عباس: هؤلاء الآيات نزلت عذراً للماضين، وحجّة على الباقين: عذراً للماضين؛ لأنهم لَقُوا الله قبل أن حرّم الله عليهم الخمر، وحجة على الباقين؛ لأن الله يقول: ((.. إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه..)) [المائدة: ٩٠] حتى بلغ الآية الأخرى.

فانظر كيف خفي على هذا البدريّ رضي الله عنه حكم هذه الآية لمّا لم يكن يعلم سبب نزولها؟ وكيف لم تكن مشكلة عند من علم سبب نزولها؟ فوضعها في منزلتها، وبيَّن معناها.

٢- أنهم عرفوا أحوال من نزل فيهم القرآن:

يقول الشاطبي في بيان أهمية معرفة الأحوال في التفسير: (ومن ذلك: معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل، وإن لم يكن ثَمّ سبب خاص، لا بدّ لمن أراد الخوض في علم القرآن منه، وإلا وقع في الشّبه والإشكالات التي يتعذّر الخروج منها إلا بهذه المعرفة).

ومن الأمثلة التي تدلّ على أهمية معرفة أحوالهم في التفسير: ما رواه البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ..﴾ [البقرة: ١٩٨] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كانت عُكاظ ومجنّةٌ وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثّموا أن يَتّجِروا في المواسم، فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ..﴾ في مواسم الحج). فنحن عندما نقرأ هذه الآية الكريم قد يتبادر إلى أذهاننا سؤال: لماذا نفى الله الحرج عن هذا الفعل، مع أننا لا نلاحظ في أي حرج؟ ولكن لما علمنا أحوال العرب وشعور الصحابة عندما نزلت هذه الآية فهمنا سبب نفي الحرج.

٣- أنهم أهل اللسان الذي نزل به القرآن:

لما كان القرآن نزل بلغتهم، فإنهم أعرف به من غيرهم، وهم في مرتبة الفصاحة العربية، فلم تتغيّر ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا في الفصاحة، ولذا فهم أعرف من غيرهم في فهم الكتاب والسنة، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان صحّ اعتماده من هذه الجهة.

٤- حسن فهمهم:

إن من نَظَرَ في أقوال الصحابة في التفسير متدبراً لهذه الأقوال، ومتفهماً لمراميها، وعلاقتها بتفسير الآية، فإنه سيتبيّن له ما آتاهم الله من حسن البيان عن معاني القرآن، من غير تكلّفٍ في البيان، بل تراهم يُلْقون الألفاظ بداهة على المعنى، فتصيب منه المراد.

وكان مما عزّز لهم حسن الفهم: ما سبق ذكره من الأسباب التي دعت إلى الرجوع إلى تفسيرهم من: مشاهدة التنزيل، ومعرفة أحوال من نزل فيهم القرآن، وكونهم أصحاب اللسان الذي نزل به القرآن، مع ما لهم من معرفة بأحوال صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم، مما كان يعينهم على فهم المراد وحسن الاستنباط.

إن هذه المزيّة تُوجِبُ على دارسِ التفسير أن يرجع إلى أقوالهم، وأن يَفْهَم تفسيراتِهم، ليَعْتَمِد عليها في التفسير، ويبنيَ عليها مسائل الآيات وفوائدها.

١ - انهم شهدوا التنزيل وعرفوا احوال
٢ - انهم عرفوا احوال من نزل القرآن
٣ - انهم اهل اللسان الذي نزل به القرآن
٤ - سلامة قصدهم
٥ - حسن فهمهم

Scanned by CamScanner